كيف ظهرت سنن الله ﷻ المذكورة في سورة الفتح في انتصار عظماء سوريا؟

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، أما بعد:

أولًا: ينبغي أن نفسر حياتنا، أحداث حياتنا، وفق بصائر القرآن، وليس وفق أفهام بني الإنسان.

تعالوا بنا الآن إلى هذا العرس الشامي البهيج، اللهم يا رب ثبّتهم واكفهم شرّ الأشرار، هذا العامل من عوامل النصر العظمى، بل هو أساس العوامل كلّها.

الآن أنا أريد أن أضرب لكم مثالًا مهمًّا، وهو مثال واضح على ما نريد أن نتكلم عنه: أنت سلمك الله قمت الصباح وطلبت من ولدك، أو طلبت من زوجتك أمرًا: أحضر لي هذا، جهِّز لي هذا، أو اذهب إلى المكان الفلاني. تعصَّى عليك، تأبَّى عليك، أبى أن يستجيب لك، ما وجدت منه الخُلُق الذي ترجو أن يكون هو الخُلُق الحسن، بماذا ستفسِّر عصيان ولدك أو نفور زوجتك عنك؟ ماذا ستقول عند ذلك؟

العادة عندنا: قال هذا الولد مخطئ، لا يطيع أباه، أو يقال هذه المرأة مخطئة لم تقم بحقوق زوجها.

قمتَ إلى السيارة، والعادة أن السيارة هذه تشتغل على خير وجه، البترول موجود، والزيت موجود، وكل شيء متهيّئ، وسيارة جديدة. فجأة تشغِّلُها فتجد أنها لا تعمل. قلت: الله أعلم ماذا حصل فيها من خلل! الآن عندما تقول إن الخلل من السيارة، أو الخلل من الولد، أو الخلل من الصديق، أو الخلل من الأخ، أو الخلل من الزوجة، أو الخلل من الزوج، المرأة تقول: هذا مثلًا، هذا هو التفسير المباشر للحدث. أنت معتاد أنك تشغل السيارة فتشتغل، ما اشتغلت إذًا هناك خلل موجود فيها. بينما الذي يوسِّع مداركه قد يقول: ربَّما عطّل الله هذه السيارة لحكمةً من الحكم؛ إمَّا لدفع مصيبة عنك - ربما تتحرك بالسيارة فتصدم مثلًا- وإمَّا لإيقاظك من ذنب أنت فعلته.

إذًا هذا تفسير أوسع للإنسان، هذا التفسير الأوسع هو الذي يعود إلى معنى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾ [القيامة: ١-٢]. اللَّوام: أي لا يجعل اللّوم على من هو أمامه، بل أيضًا هو يفكر: ربما الأمر من عندي أنا.

ثم عندما تفكر أنه من عند غيرك أو من عندك، أيضًا تشعر بأنك أنت وغيرك ضمن قدرة الله الواحد القهار جل جلاله.

على هذا؛ فإن التحليلات الإعلامية الكثيرة، من الجزيرة إلى العربية، إلى هذه القنوات، الضجة الهائلة صباح مساء، لا تتركك، ما عاد في توقف، كان قديمًا -تعرفون التلفزيونات- عبارة عن من الصباح إلى المساء وبعدين تتوقف على الأقل، يريحون في الليل يعني ننام، والأخبار تأتي الساعة الثالثة عصرًا، والساعة التاسعة ليلًا هكذا بالكثير، خلاص على الأقل

الإنسان يهدئ نفسه ومزاجه. الآن تطلع بالسيارة تشغِّل وتنزل الهاتف موجود، تلعب الرياضة أو حتى مجرد تتمشى السماعة موجودة، وهكذا نوع من الضجيج. وهذا الضجيج صفة مشتركة فيه جميعًا: أنه لا يفسر إلا وفق إرادة الماديّين من البشر. وكأنه لا يوجد ربٌّ للبشر! بعض الناس يقول لك: لا، نحن لا نتكلم عن الدين في الإعلام، لماذا لا تتكلم عن الدين؟ مع ذلك أنك تتكلم عن الشيطان باسم الشيطان، ولكن بصورة غير مباشرة. لماذا لا تتكلم عن الدين؟ ما المشكلة أن تتكلم عن الدين؟ يأتي ويقول: لا نحن محايدون. نقول: كيف محايد؟ وأنت عندما يأتي البركان، أو تأتي العاصفة، أو يأتي الطوفان، أو يأتي تسونامي، تقول: غضب الطبيعة! تحوِّلها إلى إلحاد. معظم القنوات الإعلامية تفعل ذلك.

إذًا نحن النقطة الأولى: ينبغي أن نفسر حياتنا، أحداث حياتنا، وفق بصائر القرآن، وليس وفق أفهام بني الإنسان. تعرفون قول الحسن البصري: "إني لأجد أثر ذنبي في خُلق زوجتي"، يعني أرى زوجتي متغيرة، فأبدأ أتَّهم نفسي، أبدأ أحاسب، أولًا احتمال يكون الخطأ منها، وأن تكون هي المذنبة فعلًا، لكن أيضًا الاحتمال الأول أنني أنا المذنب. فالله غيَّر عليَّ سير الدابة، وغيَّر عليَّ خُلق الزوجة. وهنا يبيِّن الله تعالى لنا في القرآن أن ننظر إلى أحداث الزمان وفق الرؤية القرآنية، وفق البصائر القرآنية، وليس وفق ما نهواه ونرجوه ونتمناه.

ثانيًا: العرس الشامي البهيج وعوامل الانتصار من خلال بصائر سورة الفتح:

الآن تعالوا بنا إلى هذا العرس الشامي البهيج. اللهم يا رب ثبتهم واكفهم شر الأشرار. آمين، إذا أتيت إلى سورة الفتح فقط، أخذت سورة الفتح وحدها لتنظر في السُّنن: سنن الانتصار وسنن الاندحار، سنن الانتصار للمسلمين، وسنن الاندحار للمجرمين، من خلال سورة الفتح:

التذكير بقدرة الله وعظمته وإحاطته وتدبيره، وعلمه وجنوده:

أوّل ما يلفت نظرك أن الله تعالى يقول في أول آية، أول كلمة في السورة: ماذا يقول في أول كلمة؟ ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ﴾ [الفتح: ١]. الله واحد. الله واحد كيف يتكلم عن نفسه ويقول "إنا"، وهو واحد؟ هو سيقول: "إني فتحت لك فتحًا مبينًا"، لكنه قال: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ﴾ [الفتح: ١]؛ ليبين عظمته وقدرته: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ [الفتح: ١]. إذًا هنا أول ما تبصره في السورة هو قدرة الله وعظمة الله، وإحاطة الله، وتدبير الله، وعلم الله، وجنود الله. ولذلك في السورة من أولها إلى آخرها تذكير بهذا الذي نغفل عنه. أين هذا؟ تجده في التحليلات السياسية. التحليل السياسي يقول لك: لا، أمريكا هي السبب وراء ما حدث. والثاني يقول: لا إسرائيل عندها مصلحة. والثالث يقول كذا وكذا. طيب مَن الذي يدير المشهد لهؤلاء

كلهم؟ الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا ۝٣﴾ [الفتح: ٣]، ثم يقول: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الفتح: ٤]. ليس هؤلاء المؤمنون الذين دخلوا دمشق ودخلوا حلب. هؤلاء كانوا متنافسين متناحرين فيما بينهم من قبل عدة سنوات. كانوا فصائل متعددة متنازعة. واحد منهم يتكلم بأنه مرتبط بالجهة الفلانية، وآخر يفتخر بأنه مرتبط بالجهة الفلانية، وآخر ينتسب إليها. كيف دخلوا على أعظم ما يكون توافقًا وتناغمًا؟ تحرَّكوا -تخيل!- تحركوا من الشمال، وأولئك أصحاب الجنوب نفس الشيء تحرَّكوا، ولما التقى الجمعان ما قالوا: لا بد من الاصطدام. بينما كانوا في المرات الماضية فتحوا حلب وظلوا يقاتلون أنفسهم، والعدو يضربهم وهم يقاتلون أنفسهم. والله قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الفتح: ٤].... هو سبحانه وتعالى وليس غيره، هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانًا مع إيمانهم.

هذا العامل من عوامل النصر العظمى، بل هو أساس العوامل كلها، الذي هو القدرة الإلهية، والإرادة الإلهية، والتدبير الإلهي. ولذلك في سورة الأنفال، لما ذكر الله تعالى يوم الفرقان، يوم التقى الجمعان، اليوم العظيم يوم بدر، عندما انتصر المسلمون في أعظم معركة في الدنيا، لأنها أساس الحركة التي تحرك بها المسلمون إلى العالم، قال الله: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٦٢﴾ [الأنفال: ٦٢] . أيدك هو، هو وليس تدبيرك ولا تخطيطك، مع أن التدبير والتخطيط مطلوبان، لكن في الأخير ينبغي أن تعلم أن المسألة لا تتعلق بالتدبير والتخطيط كم تصنع من الأمور والتفكير وتبييض الخطط، وتظن النجاح سيتم ولم يحصل شيء.

أنتم رأيتم قبل أكثر من عشر سنوات كيف كان أولئك... هؤلاء الموفقون أنفسهم، يعني الذين كانوا قبلهم، كيف كانوا يستعرضون ما عندهم من عُدّة وعَتاد. أما قرب دمشق، إن ذكرتم، قرب دمشق ذاك "جيش الإسلام" استعرضوا، وفي الأخير كأن لم يكن. بين المقام إلى الصفا مقام، ولم يسمر بمكة سامر، لا يوجد أحد. جاء المجرمون هؤلاء وفعلوا فعلتهم حتى جعلوا حمص كأن لم تغن بالأمس. يراها الإنسان أطلال مدن بأكملها أطلال، ويظن الإنسان خلاص. البدعة المجرمة المغلظة التي يدعون إليها من جعل آل البيت طواغيت بدلًا أن يكونوا الهداة الأتقياء، ظننت أنها سادت. وإذا الله سبحانه وتعالى يري آياته: ﴿وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَأَيَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ۝٨١﴾ [غافر: ٨١]. إذًا لاحظ: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٦٢﴾ [الأنفال: ٦٢]، وبعد ما أيدك بالمؤمنين، المؤمن هذا سيخالف هذا وهذا سيخالف هذا؟! أتى بالنعمة العظمى التي بعدها: ﴿وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ﴾ [الأنفال: ٦٣].

لقي مجاهد بن جبر رحمه الله تعالى -ومجاهد أحد أعظم تلاميذ ابن عباس من التابعين الكبار من المفسرين- لقي عبيدة السلماني، والتقوا مرة، فصافحه ثم حدثه أن النبي ﷺ قال عن هذه المصافحة بإسناده عن ابن عباس عن النبي ﷺ: "إذا التقى المسلمان فتصافحا تحاتت خطاياهما"، أي تساقطت مثل تساقط ورق الشجرة. فقال الآخر لمجاهد: ما أيسر ذلك! مسألة يسيرة جدًا، مجرد أنني أصافح فلانًا فتتساقط الذنوب؟ فقال له مجاهد: لا تقل ذلك، ليست مسألة يسيرة. ثم تلا عليه هذه الآية العظيمة: «وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعًا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم». هذا الله وتدبيره. أين التحليلات الحقيقية التي ينبغي أن نستشعرها والتي تزيدنا إيمانًا؟

إنزال السكينة في قلوب المؤمنين:

ولذلك في هذه السورة، سورة الفتح، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ﴾ [الفتح: ٤]. هم مؤمنون، لكن قد يَنِيب بعضهم بعضًا، فأنزل السكينة ليزدادوا إيمانًا مع إيمانهم. ثم الآن يأتيك بالبُعد الأعظم في نصرة الله لنبيه ﷺ، وتوقَّع مثل هذا النصر على ما حصل في الشام. يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الفتح: ٤]، ومن أعظم جنوده السكينة. ومن أعظم جنوده أن ينزع من أهل التدبير تدبيرهم. هؤلاء المعسكر الغربي الذي يناصب المسلمين العداء منذ بدأت الحملات الصليبية، وهو يقاتل المسلمين ويعاديهم أعظم المعاداة، قذف الله في عقولهم ما جعلهم يعادون بوتين، وقذف في عقول المعسكر الشرقي ليعادوا أولئك، ثم يجتمعوا جميعًا في أوكرانيا في المطحنة التي تطحنهم، فمن الذي صرف هؤلاء؟ كانوا متفرغين بالبراميل والإجرام والطائرات للسوريين وغيرهم، لكن الله تعالى أبعدهم جميعًا وهو يهيّئ ويدبّر أمرًا. ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٤﴾ [الفتح: ٤].

لاحظ هنا: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٤﴾، وهنا قال مرة أخرى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝٧﴾. الأولى عليمًا حكيمًا، يعلم ما يحدث، يعلم الذين كانوا يقولون: ما لنا غيرك يا الله. ما تركه ولا أهمله ولا ضيعه، هو عليم. لكن في هذا الوقت لتدبير وحكمة ما جاءت العزة، العزة سيأتي وقتها. فجاءت كلمة «عزيزًا حكيمًا» من العزة، أي القوة والقهر الذي لا يُغلب. عند الساعة المناسبة تأتي العزة.

أين كان أولئك الذين يفاخرون بالطائرات ويقتلون بالبراميل المتفجرة، ويختالون بالإجرام؟ ويأتون يرفعون عقيرتهم. أبادهم الله، أباد من أباد منهم، سُليماني راح، وسلّط الله عليه أقرب من كان يأمن عنده، يأتي من المطار ويذهب إلى مقره

ويجتمع بأولئك المجرمين، وسلّط الله عليه من يأمن عنده وعلى من معه. وبعد ذلك سلّط الله على بعضهم وسحبهم إلى جهة أخرى. هو سبحانه وتعالى «وكان الله عزيزًا حكيمًا». هنا تعلم: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٨٢ وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ۝١٨٣﴾ [الأعراف: ١٨٢-١٨٣]، حتى تأتي الساعة المناسبة. فقط أنت أيقن وآمن.

﴿لَهُمْ﴾ يعني تعطيهم وقتًا يغالون ويظنون أنهم قادرون عليها، ما أحد مثلهم. ولذلك قالوا: إن المتوحشين المجرمين الذين جاءوا من جهة ما وراء النهر، من جهة طهران ومن معها، أنفقوا أكثر من ثلاثين مليار دولار على استثمارهم في سوريا، على إجرامهم في سوريا. وأحد كبار منظِّريهم له كتاب مشهور قارن فيه بين خوزستان –وهي من محافظات إيران– وبين سوريا، ويقول إن سوريا مقدمة عندهم حتى لو اضطروا أن يتركوا محافظة من محافظات إيران، يقدِّمون سوريا. انظر كيف خرجوا خاسئين، مشروع كامل انتهى. المشروع كامل.

بعد ذلك الاختيال وذاك المجرم الأكبر الذي يقول: إن طريق القدس تمر عبر الزبداني وعبر القصير وعبر... أخذه الله أخذ عزيز مقتدر، وسلّط عليه عدوًا مجرمًا مثله. والمشكلة أن يسلّط الله ظالمًا على ظالم. قال الله تعالى: ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ۝٤٥﴾ [إبراهيم: ٤٥].

الصدق والإيفاء بالعهود:

المطلوب هو الصدق مع علّام الغيوب. ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٨﴾ [الفتح: ٨]، المطلوب أن تؤمنوا بالله ورسوله، ثم بعد إيمانكم بالله ورسوله وتعزروه أي تؤيدوا رسول الله، وتقوموا بنصرته وتوقروه وتسبحوه –أي تسبحوا الله– بكرةً وأصيلًا.

المطلوب الإيفاء بالعهود: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ۝١٠﴾ [الفتح: ١٠].

تمضي سورة الفتح هذه – قال عنها النبي ﷺ – في الليل جاء عمر بن الخطاب بعد صلح الحديبية، وهم عائدون إلى المدينة. جاء يكلم النبي ﷺ، والنبي ﷺ لا يرد عليه، يكلمه ولا يرد عليه. فخاف عمر رضي الله عنه، كيف النبي ﷺ ما يرد عليه؟ والنبي ﷺ كان مشغولًا بالوحي. فمضى عمر رضي الله عنه وهو يستغفر الله، لا يكون حصل منه شيء. فبينما هو كذلك إذ دعاه داعٍ إلى النبي ﷺ، فوقع قلبه على الأرض، قلِقَ أنه نزلت فيه آيات. فرجع، قال له النبي ﷺ:

"يا عمر، لقد أنزلت عليَّ الليلة سورة هي أحبُّ إليَّ مما طلعت عليه الشمس"، ثم قرأ عليه سورة الفتح. وهذا النبي ﷺ، بحسب المقاييس البشرية والتحليلات الإعلامية رجع بدون أن يحقق غرضه من العمرة، وقريش تجبرت عليه وأبت، جرعته رغمًا عنه، بالمقاييس البشرية هذه هزيمة، والله سبحانه وتعالى سمَّاها فتحًا مبينًا. ﴿وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ۝١٨٣﴾ [الأعراف: ١٨٣].

بعد ذلك لما يرجع النبي ﷺ وهو لم يحقق مراده، والمسلمون يرجعون وهم منكسرون، يبدأ الأعراب والغافلون يتكلمون عن المسلمين، ويذكرون أن هؤلاء المسلمين لا يحققون مرادهم. هنا يذكر الله تعالى لنا رضاه عن هؤلاء المسلمين الذين بذلوا جهدهم، فقال: ﴿لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا ۝١٨﴾ [الفتح: ١٨]. الشيء نفسه، بدل أن تتزعزع قلوبهم أنزل السكينة، أثابهم فتحًا قريبًا، ولكن ليس عاجلًا. ليس الآن، وإنما تقريبًا بعد سنة، بعد سنتين، بعد ثلاث، بعد أربع، بعد عشر سنوات.

الفتح المبين والنصر العظيم لأهل الشام:

القوم هؤلاء المباركون من أهل الشام رجعوا بعد نحو عشر سنوات. ولما رجعوا ظهرت آيات الله. قال: ﴿وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا ۝١٨ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةٗ يَأۡخُذُونَهَاۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ۝١٩﴾ [الفتح: ١٨-١٩]. لاحظ كلمة "عزيزًا" ليس "عليمًا"، لأن العلم قد تم. الآن عزيزًا حكيمًا. يقول: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ عَنۡهُم بِبَطۡنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ۝٢٤﴾ [الفتح: ٢٤].

انظر إلى إدلب مثلًا، هذه السنن في الانتصار. المجرمون هؤلاء كادوا يبيدون السوريين، لكن الله تعالى له تدبيره. جعل هذه المنطقة الزاوية مهاجرًا وملجأ للناس. إنهم كانوا يضربونها لكن ليس ضربًا يؤدي إلى الخروج عنها، فبقي الناس في تلك الزاوية من زوايا سوريا عشر سنوات، يُعدُّون، يقرؤون القرآن، يسبحون الرحمن، يذكرون الله، ويُعدُّون أنفسهم إلى الساعة الفاصلة. في عهد المسلمين قال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ عَنۡهُم بِبَطۡنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ۝٢٤﴾ [الفتح: ٢٤].

بعد ذلك قال الله في آخر الأمر: ﴿لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّۖ﴾ [الفتح: ٢٧]. الله أخبركم أنه سيفتح لكم، اطمئنوا. الآن ترون الفتح. بعد سنتين فقط دخل الرسول ﷺ، وفتح مكة. وبعد أقل من عشر سنوات عاد أهل الشام مجددًا، عاد

الأطفال الصغار الذين منهم من قُتل ومنهم من هُجِّر، عاد الباقون الذين لم يبدلوا تبديلًا، عادوا. ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ﴾ [الأحزاب: ٢٣] .

التحليلات تقول لك: لا، هذا قرار دولي بكذا وكذا. طيب، فلنفترض أنه قرار دولي، في الأخير من الذي دفعهم إلى أن يتخذوا هذا القرار الذي في الحقيقة على كل المقاييس لا يوجد لهم مصلحة حقيقية فيه، هؤلاء معسكر العدوان على بني الإنسان! عندما يتأمل الإنسان مصلحتهم، كان في أن يبقوا يشفطون النفط في جهة من جهات سوريا، يبيدون المسلمين في الجهة الأخرى.

نزع الله هذا التدبير كله، وقذف في قلوبهم ما قذف، هو الذي دبَّر هذا: ﴿لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّۖ﴾ [الفتح: ٢٧].

قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ﴾ [الفتح: ٢٨].

هذا التحليل هو الذي نحاول أن نبينه، طبعًا لا يتعلق بالأحداث المباشرة وإنما بالأحداث العامة للزمان، في هذا كتابنا "عاقبة المنذرين: من السنن الإلهية التطبيقية في تداول الأيام"، الذي نتكلم فيه عن السُّنن، سنن الله في الانتصار والانْدحار. وهذا الكتاب الأول: "المدخل إلى علم السنن الربانية" مقدِّمة، والكتاب الثاني: "عاقبة المنذرين: من السنن الإلهية التطبيقية في تداول الأيام"، ، لأن الله يقول: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، حتى المسلمون الآن كلمة "نداولها" خطيرة جدًا، سنتكلم عنها أكثر في وقت آخر إن شاء الله.

ماذا بعد التمكين؟

المسلمون الآن عندما يُمكَّنون كما حصل الآن في الشام، لا يعني هذا النهاية، لأن الشيطان لا يسكت عنهم، وجنود الشيطان لا يسكتون عنهم. أول جنود الشيطان ربما هم الذين شكروا بعض السفارات التي شكرَت لتفتح أبوابها، ربما هي مراكز من أعظم مراكز الجاسوسية كما تعلمون في العالم. نعم، ينبغي للإنسان أن يأخذ حذره. فالمداولة تحصل، المتقون يُمكَّنون ثم يغفلون، فيأتي المجرمون فيُمكَّنون، ثم يأبى الله إلا أن ينصر المتقين، ويعدّ عدتهم فيعودون. هذه المداولة تبقى، لأن الله قال: ﴿وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا ٢٠﴾ [الفرقان: ٢٠].

من أهم عوامل النصر: الترضي عن صحابة رسول الله ﷺ، والاتصاف بصفات المؤمنين:

وبين الله تعالى أن أعظم ما يعين على الانتصار هو أن نترضّى عن خير أصحاب، عن أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم. ليس عبثًا أن يكون في آخر سورة الفتح أن يثني الله على أصحاب النبي ﷺ، يقول: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ

﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، وبين أن من أعظم صفاتهم الشدّة على المجرمين، والرحمة بالمؤمنين. وليس العكس مثل ما كان بعض المجرمين الغلاة الذين يظهرون فيبدؤون يقتلون المسلمين، ويأتون بالشباب ويسجنونهم، ويفعلون ويصوِّرون بأعلى درجات الكاميرا، كأنهم يظنون أننا نصدق مثل هذه المشاهد، وأنه ليس وراءها فاعل مجرم. أبعد الله هؤلاء بفضله ورحمته.

قال: ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ [الفتح: ٢٩]:

﴿رُكَّعًا سُجَّدًا﴾: أفعال ظاهرة، ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾: مداواة للقلوب.

ثم بيّن مراحلهم: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ [الفتح: ٢٩]، يعني برعم صغير، بعد ذلك ينمو، فأزره أي أيّده بقوة من عنده سبحانه وتعالى، فاستغلظ، بدأ يغلظ ويكبر ويصبح ساقًا كبيرة مع أوراق، فاستوى على سوقه. هذا الذي فعله هؤلاء الموفقون خلال هذه السنوات الماضية، ما قالوا: نريد الحلول الدولية، نريد المبعوثين الدوليين، نناشد الأمم المتحدة. هذا الكلام الفارغ الذي خرَّب اليمن ودمره، وخرب السودان ودمره، لم يلتفتوا لذلك. وهم الآن، المجرمون الدوليون اللاعبون الكبار يحاولون فعل هذا: أرسلوا المبعوث الدولي مجددًا. المبعوث الدولي كان لا يرى الإبادات الهائلة للرجال والنساء عندما كانوا يُبادون. الآن لما مُكّنوا أرسلوا المبعوث الدولي مجددًا. فينبغي أن يحذر هؤلاء الذين مكنهم الله. أول ما يحذرون منه أمثال هؤلاء. أنا لا أقول بأنهم لا يتعاملون معهم، لكن يتعاملون معهم وهم يعلمون مع من يتعاملون. طبعًا نحن لا نوقع هذا إيقاعًا تامًا على هؤلاء، وإنما ننظر في الآيات وكيف تتكرر المشاهد.

الثمار والنتائج:

قال: ﴿فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ [الفتح: ٢٩]، الزارع الذي زرع لاحظ الآن الثمار التي ستأتي والنتائج، ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح: ٢٩] ، فأثنى على أصحاب النبي ﷺ حتى نعلم أن هؤلاء الذين يسبون الأصحاب ما هم إلا في تباب، وأن الله من ورائهم محيط. ونحن ندعو هؤلاء الذين يصرون على هذه العقيدة الفاسدة إلى أن يراجعوا أنفسهم، يراجعوا القرآن. ندعوهم في اليمن، وندعوهم في الشام، وندعوهم في العراق، ندعوهم في كل مكان، يراجعوا القرآن، فليراجعوا كتاب ربهم، ليجدوا أن سبَّ الأصحاب ما هي إلا لعنة شيطانية قذفت في رؤوسهم، قذفها الشيطان.

إذًا رأينا كيف يكون لله تدبيره. قال الله: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۝٥٠ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٥١﴾ [النمل: ٥٠-٥١]، فتلك بيئة خويّة. جَنّسوا أكثر من مليوني إنسان، وظنّوا أنهم سيطروا على سوريا. بحسب ما تنقل بعض الأخبار، أكثر من مليوني إنسان جنّسوا تجنيسًا باطلًا. جاءوا من خارج بلدان الدنيا، ذهب ذلك كله بفضل الله. كان لم يكن بفضل الله وتوفيقه ورحمته.

الله سبحانه وتعالى يبين لنا ملكه وقدرته، فيقول حتى في أُحُد، والله يبين أن النبي ﷺ أعدَّ العدَّة: ﴿وَإِذۡ غَدَوۡتَ مِنۡ أَهۡلِكَ تُبَوِّئُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ...﴾ [آل عمران: ١٢١]، على الرغم من ذلك، قال له في الأخير: ﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ أَوۡ يُعَذِّبَهُمۡ فَإِنَّهُمۡ ظَٰلِمُونَ ۝١٢٨ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ﴾ [آل عمران: ١٢٨-١٢٩]. كلمة "يغفر لمن يشاء" دعوة حتى للمجرمين أن يعودوا عن إجرامهم، وأن يتوبوا إلى ربهم، سواء المجرمين المحليين والخارجيين.

نسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يؤتينا أفضل ما أتى عباده الصالحين. اللهم اغفر ذنوبنا، واستُر عيوبنا، وتولَّ أمرنا، وأحسن خلاصنا، وأخرِج حوائجنا، واكفنا شرّ ما أهمنا وشرّ ما لم نهتم به يا أرحم الراحمين. اللهم لك الحمد كله، لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا هادي لمن أضللت، ولا مضلّ لمن هديت، ولا مقرب لما باعدت، ولا مباعد لما قرّبت.

اللهم أنزل علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك وجودك وكرمك وإحسانك وعظيم امتنانك. اللهم إنا عائدون بك من شر ما أعطيتنا ومن شر ما منعتنا. اللهم إنا نسألك النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول. اللهم إنا نسألك النعيم يوم العيلة، والأمن يوم الخوف. اللهم حبِّب إلينا الإيمان وزيِّنه في قلوبنا، وكرِّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين. اللهم أحيِنا مسلمين وتوفَّنا مسلمين، وألحقنا بالصالحين غير خزايا ولا نادمين.

ربنا اغفر لنا ولوالدينا، وارحمهم كما ربُّونا صغارًا. واغفر لأهلنا وذرياتنا، وأقرَّ أعيننا بهم. اللهم اغفر لكل من علَّمنا من كتابك حرفًا. اغفر للمسلمين والمسلمات، والمؤمنين والمؤمنات، الأحياء منهم والأموات، يا مجيب الدعوات. ربنا اجعل هذا البلد آمنًا مطمئنًا وسائر بلاد المسلمين، وفرج عن عبادك المستضعفين. اللهم اغث عبادك المستضعفين في أكناف بيت المقدس. اللهم اغث المستضعفين في فلسطين يا أرحم الراحمين، اللهم اغث المظلومين في كل مكان. واجعلنا أهلًا لولايتك يا أكرم الأكرمين. وصلى الله وسلّم على نبينا محمد وصحبه أجمعين.